عالمية الأدب العربي

للأستاذ محمد وهبي

لئن كنا نفهم الأدب على أنه التعبير الصادق للنفس البشرية، وتصوير الحياة من جميع وجوهها النفسية والفكرية والاجتماعية بواسطة الألفاظ، فإننا نستطيع أن نجد بذلك التفسير العميق لخلود الآداب على وجه العموم. فما دامت النفس الإنسانية هي هي في جوهرها على مر الأزمنة والعصور، فإنها تدأب على تمجيد صورها الفنية الرائعة التي رسمتها ريشة الأدباء والشعراء على اختلاف نحلهم وأوطانهم. وهي تمجد هذه الصور لأنها تظل تفهمها مهما تقدم بها الزمن.

على أن الخلود ليس الصفة الوحيدة التي تتمتع بها الآداب؛ فهناك صفة العالمية، أو قل طابع الشمول الإنساني الذي لم نجده في جميع الآداب، وإنما امتاز به بعضها فقط.

لقد يخلد أدب في أبناء القوم الذين أنتجوه، لأنه يحمل بين طياته صورة لحياتهم الخاصة، وغذاء معيناً لذوقهم المحلي، ولكنه لا يستطيع أن يمتد إلى ذوق سواهم من البشر، ولا أن يصل بكامل روحه إلى أفهام غيرهم من سكان المعمورة إذا ترجم لهؤلاء لأنهم لا يجدون فيه ما يتجاوب مع نفسياتهم، ولا ما يعبر عن أحوالهم وأفكارهم التي قد يشاركهم فيها جميع البشر. إنه أدب على شخصي، ينطوي على فردية متقاصة ضيقة قفيرة، يجهل صفة الإنسانية العامة، الغنية بمعانيها الحية. ولهذا نجد آداباً كثيرة جمدت ضمن البيئات التي نشأت فيها لاحتفاظها بصفة الفردية الضيقة، ثم اندثرت مع الحضارات التي رافقتها، حتى أصبحت لا تذكر إلا على سبيل التأريخ لحياة الأمم التي أنتجتها؛ بينما نرى آداباً خلدت وانتشرت في أكثر اللغات، وظلت حية ممجدة في كل صقع وكل قطر، لأنها تتمتع بصفة العالمية الواسعة ...

والأدب العربي من زمرة الآداب العالمية التي لها صفة الشمول الإنساني ... نقول هذا ونؤكده، ونحن نعلم تمام العلم أن من المستشرقين من أنكروه قطعاً، وحجتهم خلو هذا الأدب من المسرحيات التمثيلية والملاحم الضخمة، واقتصاره على وصف الأحوال والبيئات الخاصة لأعلامه. ولا يجد الواحد منا كبير عناء في الرد على مثل هذا الادعاء المنهار الأساس. فالأدب العربي يحتوي على عناصر إنسانية عدة، تنوب عن الفن المسرحي، وتكاد تفوقه في الأهمية كما سنرى. وقبل أن ننفذ إلى بحث فنون هذا الأدب، أو قل عناصره التي تجلى بها، لنأخذ لغته التي تشكل قاعدته الأولى، وعصبه الأساسي.

اللغة العربية لغة حية ما في ذلك إشكال، وهي إلى هذا غزيرة مرنة قد برهنت خلال العصور على قدرتها على التسرب إلى مختلف الشعوب، والتأثير في كثير من اللغات. والأدلة على هذا كثيرة: فمع أن الفاتحين الذين ظهروا في الشرق قبل العرب لم يستطيعوا أن يفرضوا على الأمم المغلوبة لغاتهم، فقد تمكن العرب من فرض لغتهم عليهم. ولما صارت اللغة العربية عامة في جميع البلاد التي استولوا عليها، حلت محل ما كان فيها من اللغات: كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية وغيرها. وقد كان للغة العرب مثل ذلك الحظ حتى في بلاد فارس على الرغم من يقظة الفرس، بل لقد ظلت اللغة العربية في تلك البلاد لغة أهل العلم والأدب، وظل الفرس يكتبون لغتهم بالحروف العربية ولم تؤلف كتب الكلام والعلوم الأخرى في بلاد فارس بغير لغة العرب، وإلى اليوم لا يزال أمر اللغة العربية في ذلك الجزء من آسيا كالذي كان للغة اللاتينية في القرون الوسطى بأوربا.

يمينه على إتمام دراسته لقاء دين يسدده بعد أن يتخرج في الجامعة. ورفض الأب أن يستسلم لرأي ابنه الشاب ... ورفض أن يستخذي في إصرار وعناد. واحتدم النقاش بين الأب وابنه فثارت ثائرة الأب فلطم ابنه لطمة طار لها صواب الشاب فما شعر إلا وهو يهوي على خد أبيه بلطمة قاسية ثم يطير إلى عمه يستجديه.

وطفرت من عين الأب المنكود عبرة حرّى تحمل كل معاني الذل والشقاء.

وفي الصباح فزع الناس إلى الدار الوضيعة ... دار ربيب العز والثراء ليروا الرجل ملقى في ناحية ينزف دمه آخر قطرة من الترفع، تنهمر من شريان في يده مزقته كبرياء لم تتصاغر من ذل الفاقة، ولا تطامنت أمام ذل اللطمة من ابن عاق ...

كامل محمود حبيب

وقد كان للغة العربية فوق هذا أثر عميق في اللغات اللاتينية ذاتها ، حتى أن المستشرقين « دوزى » و « أنجلمن » وضعا معجماً في الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغة العربية . وحتى اللغة الفرنسية أيضاً لم تنج من تأثير اللغة العربية التي أعطتها مثلما أعطت الطليان اصطلاحات كثيرة ، وخصوصاً الاصطلاحات البحرية . ويذهب الدكتور « غوستاف لوبون » في كتابه « حضارة العرب » إلى القول بأن الأوربيين اقتبسوا القافية في الشعر من العرب ، وأن الشعر الأسباني والشعر البروفنسي مدينان في ظهورهما لشعراء عرب الأندلس ، ويؤيده في هذا عدة مستشرقين .

لسنا في حاجة إلى الاسترسال في التدليل على خاصة المرونة في اللغة العربية ، تلك الخاصة التي جعلت منها لغة عالية عظيمة الانتشار ، فكان لها الأثر الأكبر في نقل الأدب العربي إلى أقطار كثيرة ، وتزويد روحه بعناصر شتى ومواد غزيرة في بلاد متنوعة ، مما جعله بالتالي أدباً عالياً قريباً إلى نفس الإنسان في أي مكان . ولا أدل على ما نذهب إليه من كثرة الترجمات الأدبية من اللغة العربية إلى اللغة الأجنبية ، ورواج هذه الترجمات وتعدد طبعاتها ...

وإذا ما نظرنا في الأدب العربي ، فأول ما يسترعي انتباهنا في روحه ذلك الاتصال المباشر الدقيق بأعماق النفس الإنسانية على وجه العموم ، بحيث أنه وصفها وحللها وتواجد معها ، ونبض بمعانيها على اختلافها وتنوعها من سمو وضعة ، ومن قوة وضعف . ويبرز أمامنا في هذا المعنى شعر عمر بن أبي ربيعة الذي عبر أصدق تعبير عن نفسية الإنسان في غرامه وفي فهمه لعقلية النساء . وإني لا أنسى داليته المشهورة التي قالها في محبوبته « هند » ، حيث يصور لنا مشهداً فريداً في نوعه ، ويعطينا وصفاً طريفاً لأحاديث النساء فيما بينهن ، بحيث يخلص منه إلى إبراز الغيرة التي تخالج نفس المرأة أياً كان لونها أو زمنها ، لنصغ إليه إذ يقول:

زعموها سألت جاراتها ... وتعرت ذات يوم تبترد
أكما ينعتني تبصرنني ... عمركن الله أم لا يقتصد ؟
فتضاحكن وقد قلن لها : ... حسن في كل عين من تود
حسداً حملنه من أجلها ... وقديماً كان في الناس الحسد

ونستطيع أن نتبين أوجه الشبه القوي في هذه الخاصة بين ابن أبي ربيعة «وراسين» في الأدب الفرنسي، أو « ألفرد دو موسيه» كذلك ، بل إن ابن أبي ربيعة بلغ من إتقانه تصوير النفس البشرية حداً جعله يستعمل أبسط الألفاظ وأقربها إلى العامية أحياناً لأجل تأدية المعاني الدقيقة .

ويشارك ابن أبي ربيعة في هذه الميزة أبو نواس ، ذلك الشاعر العالمي النادر المثال الذي لم يدع حالة من أحوال اللهو والمجون إلا وصفها وصفاً صريحاً كشف عن أدق النزعات والنزوات التي تخامر نفس الإنسان ويكبتها أو يحجبها عن المجتمع .

وخاصة ثانية ارتقى بفضلها الشعراء العرب إلى مرتبة الشعراء العالميين ، تلك هي إحساس الطبيعة ، أو قل تعشق الطبيعة ، والتواجد معها ، وتقديس جمالها والافتتان بتصوره . فابن الرومي ، ذلك الفنان المتيم بالألوان ، والبحتري يستويان في هذا الباب في مرتبة « لامرتين » و « شاتوبريان » و « فيكتور هوجو » . وأما شعراء الأندلس ، فلا تقل عن الشأو الرفيع الذي بلغوه في هذا التواجد الإنساني ، الذي يتجلى في قول ابن خفاجة حين يصف روضة عند الصباح :

والنَّور طرفٌ قد تنبه دامعٌ ... والماء مبتسمٌ يروقُ صقيلُ
فالروض مهتز المعاطف نعمة ... نشوان يعطفه الصبا فيميلُ
ريان فضضه الندى ثم انجلى ... عنه فذهَّب صفحتيه أصيلُ
وارتد ينظر في نقاب غمامة ... طرفٌ يرنقه النعاس كليلُ
ساجٍ كما يرنو إلى عواده ... شاكٍ ويلمح العزيزَ ذليلُ ...

وبين أعلام الأدب العربي شعراء نستطيع تسميتهم شعراء المبدأ أو شعراء الفكرة إن صح هذا التعبير ، يرتقون إلى درجة العالمية بجدارة صريحة ، بفضل المبادئ أو المذاهب الإنسانية التي اعتمدوها في إنتاجهم الفكري . ففلسفة التشاؤم وحرية الفكرة تشكلان المحور الأساسي لشعر أبي العلاء المعري ؛ وهو يلتقي من ناحية التشاؤم بالفيلسوف الألماني « شوبنهور » ، وفي ناحية حرية الفكر بالكاتب العالمي المعاصر « برناردشو » .

أما المتنبي فقد تجلت في شعره فكرة إنسانية خطيرة ، كان من شأنها أن تطورت وتبلورت من بعده في مبدأ فلسفي هام عند الفيلسوف الألماني نيتشه : ألا وهي فكرة « الاستعلاء » ؛ وقد جسمها «نيتشه» في شخصية « الإنسان الأعلى » أو «السوبرمن» على حد تعبيره . وحسبنا من شعر المتنبي المفعم بهذه الفكرة قوله :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم ... بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وقوله :